# الأسباب النحويَّة المؤدَّية إلى تعدد المعنى في النص القرآني
## دراسة في تفسير الكشَّاف للزمخشري

أ.م.د. سمير داود سلمان
كلية التربية للبنات/ جامعة البصرة

**المقدمة:**

إن قضيَّة (تعدد المعنى) تعد من أهم القضايا التي أهتم المفسرون بها في تفسيرهم للنّص القرآني وكانت هذه القضية بمفهومها الذي تتناوله هذه الدراسة مدار البحث والتحليل في تفسير يُعد من أهم تفاسير القرآن الكريم ألا وهو تفسير الكشَّاف للزمخشري الذي يضم علومَ اللغة العربيَّة المختلفة التي وظفها في تفسيره للآية القرآنية توظيفًا يتناسب مع المعنى المراد اظهاره من خلالها ٠ إنَّ تعدد المعنى في مواضعَ كثيرةٍ في تفسير الكشَّاف للكثير من الآيات القرآنيَّة وتحليله لها هو أحد الدوافع التي دفعتني لدراسة الأسباب التي أدت إلى هذا التعدد , ومن هذه الأسباب , هي الأسباب النحويَّة , فكان عنوان البحث (الأسباب النحويَّة المؤدَّية إلى تعدد المعنى في النَّص القرآني – دراسة في تفسير الكشَّاف للزمخشري) وأمَّا خطة البحث لهذا الموضوع فقد توزعت على مقدمة وخمسة مباحث , وخاتمة بأهم النتائج وقائمة بالمصادر والمراجع ٠أمَّا المباحث التي تناولتها هذه الدراسة فقد كانت على النحو الآتي :

المبحث الأوَّل تناولت فيه تعدد المعنى في حروف المعاني وأثره في تعدد المعنى في النَّص القرآني.

وأمَّا المبحث الثاني فقد تناولت فيه تعدد مَرْجَع الضمير .

وأمَّا المبحث الثالث فقد تناولت فيه التوجيه الإعرابي وأثره في تعدد المعنى.

وأمَّا المبحث الرابع فقد تناولت فيه تعدد المحل الإعرابي .

وأمَّا المبحث الخامس فقد تضمن أسباب نحوية أخرى أدَّت إلى تعدد المعنى في النَّص القرآني , من ذلك : تعدد تعلق شبه الجملة ( الجار والمجرور والظرف ) , وتعدد صاحب الحال , وتعدد المستثنى والمستثنى منه. وأمَّا الخاتمة فقد بيَّنتُ فيها النتائج التي توصل اليها البحث . وضم البحث مجموعة من المصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

**المبحث الأوَّل (تعدد المعنى في حروف المعاني):**

حرف المعنى : هو ما كان له معنى لا يظهر إلاّ إذا انتظم في الجملة كحروف الجر والاستفهام والعطف [١] و واو الحال و واو المعية [٢] وغيرها من الحروف سواء أكانت عاملة أم غير عاملة [٣] وبتعبير آخر يمكن القول أنّ المعنى الذي ينتجه هذا الحرف يجب أن يكون في الكلام أو السياق الوارد فيهما , فمثلاً ( من ) ((تكون لابتداء الغاية كقولك: خرجت من البصرة)) [٤] والى ((تكون لمنتهى غاية: كقول القائل : إنَّما أنا إليك , أي أنت غايتي)) [٥] ومن جهة أخرى قد يضمَّن الحرف معنى حرف آخر , وهو ما يعرف بتقارب معاني الحروف أو تعاقبها وهو من اتساع العرب في كلامها , وفي هذا يقول ابن السرَّاج ((واعلم أن العرب تتسع فيها فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني , فمن ذلك , الباء , تقول فلان بمكة , وفي مكة , وإنما جاز معاً , لأنك إذا قلت : فلان في موضع كذا وكذا فقد خبرت عن اتصالهِ والتصاقه بذلك الموضع , واذا قلت : فلان في موضع كذا فقد خبرت بـ(في) عن احتوائه إيَّاه وإحاطته بهِ , فإذا تقارب الحرفان فإن هذا التقارب يصلح لمعاقبة ,

وإذا تباين معناهما لم يجز , ألا ترى أن رجلًا لو قال مررت في زيد , وكتبتُ إلى القلم لم يكن هذا يلتبس به , فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض)) (٦) ومن خلال هذا التقارب يكون للحرف معنى جديدٌ غير المعنى المتعارف عنه , واحيانًا يتكرر الحرف الواحد في سياق معين في اكثر من موضع , فيكون لكل موضع يرد فيه معنى مغاير عن الموضع الآخر فيتعدد المعنى ويتسع بناءً على تكرار الحرف وما يحتمله من معنى وسأُبيِّن ذلك فيما بعد . وقد وردت حروف المعاني في القران الكريم في مواضع متعددة وكانت سبباً من أسباب تعدد المعنى في النَّص القرآني وقد تعامل معها الزمخشري تعاملًا يتماشى مع افقه الواسع في تفسيره للنَّص القرآني , فهو يعد من أكثر المفسرين استلهاما لمعاني الحروف وتعددها وكشفا عن أسرارها ٠ وسأقف على بعض المواضع التي ظهر أثر حروف المعاني في تعدد المعنى فيها بجلاء ٠

قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (٧) فـ( مِن) في قوله (وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) تحتمل معنيين, الأوَّل: التبعيض والثاني ابتداء الغاية , وبيَّن الزمخشري هذه المعاني , بقولِه : و(مِن) للتبعيض(٨) أي إنَّها من عداد المواظبين على الطاعة , والتذكير هنا للتغليب للإشعار بأنَّ طاعتها لم تُقصر على طاعة الرجال حتى عُدَّت من جملتهم , أي من بعضهم , فهو أبلغ من قولنا : وكانت من القانتات(٩) ويجوز أنْ تكون لابتداء الغاية. على انَّها ولدت من القانتين , لأنَّها من أعقاب هارون أخي موسى صلوات الله عليهما(١٠) إنَّ ما ذكره الزمخشري من احتمال تعدد المعنى لهذا الحرف من شأنه أنْ يُسهم في فهم النَّص القرآني ، فإذا كانت (مِن) للابتداء فإنَّ القنوت عند مريم مبدؤهُ من أهل بيتها أي انتسابها إلى هارون أخي موسى عليهما السلام، وامَّا إذا كانت للتبعيض فهذا يدل على أنَّها من القوم الذين خصَّهم الله تعالى بهذه الصفة أي من المطيعين لله والخاضعين له الدائمين عليه٠ وفي تفسير قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [١١]. يقول الزمخشري ((فإن قلت ( مِنْ ) في قوله (مِنْ أَزْوَاجِنَا) ما هي ؟ قلت يحتمل أن تكون بيانية كأنَّهُ قيل هب لنا قرة أعين ، ثم بُيّنت القرة وفُسّرت بقوله ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾[١٢] ومعناه : أن يجعل الله لهم قرَّة أعْيُن . وهو من قولهم : رأيْتُ منك أسدًا , أي : أنت أسدٌ , وأن تكون ابتدائية على معنى : هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح))[١٣] ذكرَ الزمخشري في هذه الآية معنيين للحرف وكلا المعنيين مطلوبان، فهو عندما قال إنَّ (مِن) تُفيد التبيين لأنَّ مراد هؤلاء أن يكون لهم من أزواجهم وذرياتهم قُرَّة أعْيُن فيسرّوهم بطاعة الله والتجنب عن معصيته فلا حاجة لهم غير ذلك ولا اربة وهم أهل حق لا يتبعون الهوى [١٤] وإذا أفادت معنى الابتداء فهؤلاء يرون في دعائهم انَّ السرور في قرَة الأعين تكون من جهتهم وهذا هو مطلب دعائهم وغاية أمنيتهم. فكان الغرض من تعدد المعنى هو التوسع في فهم النص القرآني . ومنه أيضا في تفسيره لقوله تعالى ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٥] فـ (مِن) في قوله (وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) تحتمل أن تكون للبيان , فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة , لأنَّهم كانوا جماعات , أو قيل لهم أمم ؛لأنَّ الأمم تتشعب منهم , ويجوز أنْ تكون لابتداء الغاية , أي على أُممٍ ناشئة ممن معك , أي الأُمم المؤمنة المتناسلة ممن معه إلى يوم القيامة[١٦] وفي تبيانه لمعنى ( مِن ) أيضًا في قوله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه واله وسلم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [١٧] يقول الزمخشري : و(مِن) يجوز أنْ تكون للتبعيض , فأولو العزم بعض الرسل – عليهم السلام – ويجوز أنْ تكون للبيان , فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم[١٨], أي : فاصبر كما صبر الرسل المجدون المجتهدون في تبليغ الوحي الذين لا يصرفهم عنه صارف , ولا يعطفهم عنه عاطف الصابرون على ما أمر الله تعالى فيما عهد سبحانه اليهم أو قضاه وقدره عز و جل عليهم بواسطة أو بدونها[١٩] إنّ اعتبار (مِن) للبيان , أي لبيان الجنس أو للتبعيض , يُعد توسعاً في فهم النص القرآني وتعدداً في معناه , ويخرج بـ ( مِن ) عن نطاق المعنى الواحد لها إلى معنى يحتاجه السياق أو

النَّص عموماً , فإذا اعتبرنا انَّ ( مِن ) للبيان , ففيها من الحث والترغيب , أي حث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وترغيبه في الصبر على أذى الكافرين المنكرين للرسالة من خلال الاقتداء بأولو العزم الذين عزموا على أداء الرسالة وتحمّل أعبائها[٢٠] وأمّا إنْ كانت (مِن) بعضية , فإنَّ الذي وقع عليك قد وقع على بعض الرسل لكنَّهم لم يستسلموا للكفار والمنافقين والمعاندين .وقد يأتي تعدد المعنى في النص القرآني من خلال تكرار الحرف في أكثر من موضع , وقد بيَّن الزمخشري المعنى الذي ينتجه الحرف في كل موضع ورد فيه , ففي قوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢١] في هذه الآية تكررت (مِن) ثلاث مرات , وفي كل موضع وردت فيه لها معنى مغاير عن الموضع الآخر , وقد كشف الزمخشري عن هذه المعاني إذ يقول ((فإن قلت : أي فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) (مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) (مِنْ شُرَكَاءَ) ؟ قلت: الأولى للابتداء, كأنَّهُ قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد. والثانية للتبعيض , والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي )) [٢٢] إنَّ تكرار ( مِن ) في هذا النَّص وما تحمله من معانِ متغايرة سواء أكانت للابتداء أو للتبعيض أو لتأكيد الاستفهام , تمثل بمجملها مع قرائن السياق الأخر احتجاجا من قبل الله سبحانه وتعالى على عبدة الأوثان , من خلال ضرب المثل الذي يمثل مرجعية معرفية , وهي الافادة من الواقع الاجتماعي للوصول إلى حتمية الوحدانيَّة الإلهيَّة , وفي هذا الصدد يقول الزمخشري : ((إنَّكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أنْ يكونوا شُركاء لكم في أموالكم وأملاككم فكيف ترضون لربكم وهو رب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أنْ تجعلوا بعض عبيده له شركاء ؟)) [٢٣] فهذا المشهد من الواقع الاجتماعي يمثل دليلًا على حتميَّة الوحدانيَّة الإلهيَّة وقد فصَّلهُ الله في هذا النّص لقوم يعقلون , أي إنَّهم يستطيعون الاستفادة من الظواهر الاجتماعية كونها مرجعية معرفية في سبيل معرفة الحقيقة الإلهية[٢٤]

ومن الشواهد أيضاً على تكرار (مِن) في النَّص القرآني وتعدُد معناها , قوله تعالى ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٢٥] في هذا النص تكررت (مِن) في أكثر من موضع , وقد بيَّن الزمخشري المعاني التي تؤدّيها. فـ (مِن) الأولى في قوله (مِن أهل الكتاب والمشركين) هي لبيان الجنس؛ لأنَّ الذين كفروا جنس تحته نوعان :

أهل الكتاب والمشركون , وشبَّه الزمخشري هذا المعنى بقوله تعالى , كما ورد في سورة البيِّنة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [٢٦], والثانية في قوله ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ هي مزيدة لاستغراق الخير وتوكيدهِ , والثالثة في قوله ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية[٢٧] والتعرض لعنوان الربوبيَّة للإشعار بعليَّة التنزيل , والإضافة إلى ضمير المخاطبين لتشريفهم[٢٨] وإذا نظرنا إلى تكرار(من) في سياق هذه الآية نلحظ أنَّها بيَّنت كذب هؤلاء اليهود وأظهرت حقيقتهم بأنهم لا يحبون الخير للمؤمنين، وخاصة إذا كان هذا الخير مبدءَهُ من الله تعالى؛ لأن ذلك يزيد غيظهم وحسدهم.

ومن حروف المعاني الأخرى التي بيَّن الزمخشري معانيها المتعددة ( الواو ) وهي من الحروف التي تدخل على الاسم والفعل جميعًا ولا تختص بأحدهما ولها معانٍ عدة[٢٩] وقد ذكر الزمخشري لها في تفسيره أكثر من معنى واضعاً لها أكثر من احتمال , ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٣٠] يرى الزمخشري إن الواو في قوله ( ولم تُحيطوا بها علماً ) يمكن أن تكون للحال , ويجوز أن تكون للعطف , إذ يقول:((والواو للحال , كأنه قال : أكذبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها , وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب , أو للعطف , أي : أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها , فإن المكتوب اليه قد يجحد أن

يكون الكتاب من عند من كتبه ولا يدع مع ذلك أن يقرأ ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه)) [٣١], إن مجيء الواو للحال أو للعطف يوسع أفق فهم الآية القرآنية ويعدد معناها ويخرج بها عن نطاق المعنى الواحد لها , فإذا اعتبرنا الواو للحال فهي في سياق الآية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للإنكار والتوبيخ لأنَّهم لم ينظروا إلى آيات الله نظرةً تؤدي إلى العلم بكنهها , وحقيقة تصديقها , فحالة التسرع في الحكم وعدم فسح المجال للعقل لكي يأخذ دوره في اتخاذ القرار هو الذي أوصلهم إلى التكذيب بآيات الله وعدم التصديق بها .

وأمَّا إذا كانت الواو للعطف فإنَّ الجمع بين التكذيب بآيات الله وعدم الإحاطة بها علماً يدلُّ على عدم صدقهم وعدم جديتهم في معرفة حقيقة هذه الآيات والوقوف على كنهها .

ومن تلك المواضع أيضا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [٣٢] في هذه الآية ذكر الزمخشري معنيين للواو :

الأول : العطف [٣٣] فالشياطين معطوفة على الضمير المنصوب في (لَنَحْشُرَنَّهُمْ) , والثاني : المعية وهي بمعنى ( مع ) أوقع , والمعنى : إنهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة[٣٤] إنَّ ترجيحه الواو للمعية حينما قال: وهي بمعنى (مع أوقع) هو مراعاته سياق الكلام وتوجيهه لمعناه بما يعطي انسجاما اكبر بين أجزائه وأطرافه .

وقد يأتي تعدد المعنى للواو , عند الزمخشري , من خلال طرحهِ سؤالًا عن العطف الوارد في الآية القرآنية , ثم الإجابة عنه من خلال ذكره لوجود العطف , فضلًا عن المعاني الأخرى التي تنتجها الواو ، من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٣٥] يقول الزمخشري (( فإن قلت علام عطف قوله ( و أنَّ أكثركم فاسقون ) قلت : فيه وجوه منها إنَّه عطف على آمنا

, بمعنى وما تتقمون منَّا إلاّ بجمع بين إيماننا وبين تمردكم وخروجكم عن الإيمان , كأنَّهُ قيل : وما تنكرون منَّا إلاّ مخالفتكم حيث دخلنا في دين الإسلام وأنتم خارجون منه , ويجوز أن يكون على تقدير حذف مضاف , أي واعتقاد إنكم فاسقون ومنها أن يعطف على المجرور , أي وما تتقمون منّا إلاّ الإيمان بالله وبما أنزل وبأنّ أكثركم فاسقون . ويجوز أن تكون تعليلًا معطوفًا على تعليل محذوف كأنه قيل: وما تتقمون منّا إلاّ الإيمان لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم الشهوات)) [٣٦] وهنا يكون موضع (أنّ ) في قوله (وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ) نصباً بإضمار ( اللام ) على تأويل : ولانّ أكثركم فاسقون[٣٧], ومن تلك المواضع أيضاً تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٣٨].

ذكر الزمخشري للواو في قوله ( ونريد أنّ نمنّ ) معنيين :

الأول: العطف , إذ يقول : فإن قلت : علامَ عُطف قوله (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ) وعطف على ( نتلو ) و ( يستضعف ) غير سديد : قلت : هي جملة معطوفة على قوله ( إن فرعون علا في الأرض ) لأنَّها نظيرة ( تلك ) في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون واقتصاصاً له , و ( نُريدُ ) حكاية حال ماضية .

الثاني : حال , إذ يقول : ويجوز أن تكون حالًا من يستضعف , أي : يستضعفهم فرعون ونحن نُريدُ أنْ نمنَّ عليهم[٣٩]. إنَّ مجيء حرف الواو للعطف أو للحال يعد تعددًا في المعنى وتوسعًا فيه فأمّا العطف الوارد في الآية الكريمة فقد جمع بين عملين مختلفين : الأوَّل : طغيان فرعون وتجبره على بني إسرائيل لغرض إذلالهم والقضاء عليهم , والثاني : استنصار بني إسرائيل ونجاتهم من فرعون وهذا العمل متمثل بالإرادة الإلهية التي قضت بتغيير موازين القوى لصالح بني إسرائيل . وأما إذا كانت الواو للحال في سياق الآية الكريمة فهي تمثل تغييرًا في مسار النعم الإلهيَّة , أي تحوّل ثقل النِّعم من آل فرعون الأقوياء العالين الطاغين المتجبرين

،إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وهذه المنن تتمثل بجعلهم الوارثين للأرض بعد أن كانت بيد غيرهم , وأن يكونوا متبوعين بعد أن كانوا تابعين وغيرهما من النعم .

**المبحث الثاني (تعدد مَرْجَع الضمير):**

مَرْجَع الضمير : هو الشيء الذي يفسر الضمير ويوضح المراد منه بحمل دلالة ذلك الضمير عليه ، والأصل في هذا المفسِّر أو الموضح أن يكون متقدماً على الضمير مذكورًا قبله ليبيَّن معناه أولًا ويكشف المقصود منه ثانياً , وقد يهمل الأصل لحكمة بلاغيَّة[٤٠] فأيُّ ضمير في آية جملة أو عبارة لا بدَّ أنْ يعودَ على شيء حتى يتم المعنى في الكلام , ولكن قد يحدث احتمال وجود أكثر من عنصر لغوي في الكلام سواء أكان في سياق داخلي أم خارجي يمكن إرجاع الضمير عليه , وقد وضع النحاة ضابطًا لذلك وهو عودةُ على أقرب المذكورات التي يمكن حمله عليها في الجملة [٤١] ما لم يوجد دليل أو قرينه تخرجه عن ذلك , كما في قولنا : حضرت ربابُ والضيف فأكرمتها , فهنا قرينة التأنيث تحتم عود الضمير على رباب , وأن الغرض من وجود الضابط هو أمن اللبس وتحديد المعنى , وفتحاً لآفاقه ما دام السياق لا يرفض شيئاً من تلك الاحتمالات .

وقد كان الزمخشري مراعياً السياق في المقام الأوَّل في تحديده لمرجع الضمير , مبيِّنًا احتمالاته الممكنة ما دام السياق يسمح بذلك , ولم يقف عند الضابط النحوي وحده مما أثرى تفسيره بالمعاني الجديدة والمتعددة التي يمكن أن تكون محتملة في النص القرآني .

وفي هذا المبحث سأقف على أبرز المواضع التي يؤدي التعدد في احتمال عود الضمير إلى تعدد المعنى في النص القرآني .

ومن هذه المواضع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ

عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٤٢] ففي قوله:(مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) ضمير متصل ( الهاء ) , وهذا الضمير يحتمل أن يعود على (من أوفى) ويجوز أن يعود على لفظ الجلالة ( الله ) , يقول الزمخشري ((إن الضمير في (بعهدِهِ) راجع إلى (مَن أوفى) على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه٠فإن قلت : فهذا عام يخيل أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله .

قلت : أجل لأنَّهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم , وهو ما أُخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم , ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه . ويجوز أن يرجع الضمير إلى ( الله تعالى ), على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه, ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء))[٤٣] . مما تقدم نلحظ أن عود الضمير (الهاء) إلى (مَنْ) أو إلى (اسم الله تعالى) يعد توسعا في المعنى، ففي الاحتمال الذي عاد فيه الضمير إلى (مَنْ) معناه مَن أوفى بعهد نفسه لأنَّ العهد يضاف تارة الى العاهد وتارة الى المعهود والمراد بهذا العهد هو عدم نقض عهد الله تعالى، وأمَّا الاحتمال الثاني الذي عاد فيه الضمير إلى (اسم الله) فيكون عهد الله إلى عباده أوامره ونواهيه وكذلك أخذ الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به ويعبدوه٠وفي تفسيره لقوله تعالى﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[٤٤]

ذكر الزمخشري لعود الضمير المتصل به احتمالين:

الأول: القرآن , والثاني : لفظ الجلالة ( الله ) الذي استنبطه من مفهوم الآية القرآنية , إذ يقول ((الضمير في (به) للقرآن ولما كان الإيمان به إيمانا بالله و بوحدانيته وبراءة من الشرك , قالوا (ولن نشرك بربنا أحداً ) أي : ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به في طاعة الشيطان . ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل , لأنَّ قوله ( بربنا ) يفسرهُ ( جَدُ ربنا ) وعظمته من قولك : جد فلان في عيني أي : عَظُم ))[٤٥] ومنه أيضاً ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٦] يقول الزمخشري ((فان قلت : إلام يرجع الضمير في قوله (بَيْنَهُمْ) , قلت : يجوز أنْ يرجع إلى العباد كلهم وإن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلاّ قضاء بينهم بالحق والعدل , ويجوز أن يرجع إلى الملائكة على أنَّ ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعاً لا يكون على سنن واحدة , ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق))[٤٧]. إنَّ عود الضمير في ضوء ما ذكره الزمخشري يسير في اتجاهين: الأوّل ، يعود إلى الملائكة ؛لأنَّهُ أقرب المذكورات والثاني يعود إلى العباد جميعا ؛لأنَّ الغرض من القضاء هو الفصل بينهم بالحق والعدل لكي ينال كل واحد منهم حقه ومصيره امَّا الى الجنة وامَّا إلى النَّار .فالإحتمالات التي ذكرها الزمخشري بعضها ضمن السياق الداخلي والأخر ضمن السياق الخارجي وكلا السياقين مطلوبان للوصول الى المعنى المناسب في تفسير ارجاع الضمير . وهكذا نجد الزمخشري في هذه المواضع التي ذُكِرتْ ومواضع أخرى سنذكرها يضع احتمالاته لمرجع الضمير بقدر توسعه في تفسير الآية القرآنية فمثلاً في تفسيره لقوله تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[٤٨] يقول الزمخشري : ((الضمير في ( إنَّهُ ) إما للولي يعني حسبه أنَّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك وبأنَّ الله قد نصره

بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبغِ ما وراء حقه ،وامَّا للمظلوم ؛ لأنّ الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله . وينصره في الآخرة بالثواب وامَّا الذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنَّهُ منصور بإيجاب القصاص على المسرف))[٤٩] ومنه أيضاً في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[٥٠], يقول الزمخشري : ((والضمير في (إنَّهم لمحضرون) للكفرة والمعنى : أنَّهم يقولون ما يقولون في الملائكة , وقد علم الملائكة إنَّهم في ذلك كاذبون مفترون , وإنَّهم محضرون النار معذبون بما يقولون , والمراد المبالغة في التكذيب . ويجوز إذا فُسّرت الجّنة بالشياطين : أن يكون الضمير في (إنَّهم لمحضرون) لهم , والمعنى : إنَّ الشياطين عالمون بأن الله يحضرهم النار ويعذبهم ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم))[٥١]. إنَّ الاحتمال الثاني في مرجع الضمير الذي ذكره الزمخشري كان مشروطًا , بأن تفسر الجّنة بالشياطين , وهذا يدل إن الجّنة قد تفسر بتفسير آخر فتكون بمعنى الملائكة , وهذا ما ذهب إليه الزجَّاج إذ يقول ((أي ولقد علمت الجّنة وهم الملائكة أما الذين قالوا : ولد الله ..(...).. لمحضرون العذاب))[٥٢]

ومن ذلك أيضًا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [٥٣] فالضمير المتصل ( الهاء ) الوارد في لفظة ( سَوَّاها ) يحتمل أن يعود على فعل الدمدمة ويجوز أن يعود على ثمود , وقد علَّق الزمخشري على هذين الاحتمالين بقوله : ((الضمير في (سوَّاها ) يرجع إلى الدمدمة أي : فسَوَّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم))[٥٤] ؛لأنَّ معنى ( دمدم عليهم ) أطبق عليهم العذاب[٥٥] ((ويجوز أنْ يكون الضمير

لثمود على معنى , فسوَّاها بالأرض أو في الهلاك ولا يخاف عقباها)) [٥٦] وفي موضع آخر نلحظ أنَّ الزمخشري يذكر احتمالين لمرجع الضمير , الأوّل يستنبطه من سياق الآية القرآنية والثاني من داخلها , كما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٧] , يقول الزمخشري ((الضمير في قوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) يرجع للكفار)) [٥٨] لأن معنى (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) أي من بعد ظلم الكفار إياهم[٥٩] ((أي : لو علموا أنَّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم , ويجوز أنْ يرجع الضمير إلى المهاجرين أي : لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم)) [٦٠]. وقد يكون السبب في تعدد المعنى في النص القرآني هو اختلاف عود الضمير، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٦١]. يقول الزمخشري: ((فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ) قلت : إمَّا أنْ يرجع إلى (ما أمسكنَ) على معنى وسمَّوا عليه إذا ادركتم ذكاته أو إلى( ما علمتم )من الجوارح أي سمَّوا عليه عند ارساله)) [٦٢]

**المبحث الثالث (التوجيه الإعرابي):**

المقصود بالتوجيه الإعرابي : وجود حالة إعرابية للفظة ما , قد تكون حالة النصب مثلًا , لكن هذه الحالة الواحدة تحتمل اكثر من توجيه , فمثلاً قد تكون اللفظة منصوبة لكن بإمكان حَمل نصبها على أنَّها حال أو على أنَّها صفة أو على أنَّها مفعول لأجلهِ , وهكذا , فهي من الناحية الإعرابية معروفة لكنَّها تختلف في توجيهها الإعرابي , وقد ورد التوجيه الإعرابي في تفسير

الكشّاف في مواضع متعددة وكان في أكثر المواضع التي ورد فيها سببًا من أسباب تعدد المعنى واتساعه , وفي هذا المبحث سأتناول أبرز الألفاظ التي تعدد فيها التوجيه الإعرابي مبينًا أثره في المعنى وتعدده في النص القرآني.

١ - ( شَهْوَةً ) كما في قوله تعالى على لسان النبي لوط مخاطبًا قومه ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [٦٣], وجَّه الزمخشري هذه اللفظة توجيهًا إعرابيا يتناسب مع المعنى المراد منها في هذهِ الآية , إذ يقول (((شهوةً) مفعولا له أي للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلاّ مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر ولا ذم أعظم منه ؛ لأنَّهُ وصفٌ لهم بالبهيمة , إنَّهُ لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه , أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة))[٦٤]. إنَّ التوجيه الإعرابي الذي ذكره الزمخشري لهذه اللفظة كان له أثر كبير في المعنى وتعددهِ , إذا ما عددناها منصوبة على إنها مفعول لأجله أو على إنها مصدر في موضع الحال , فالتوجيه الأول ،هو بيان للغرض الذي من أجله حصل الفعل , وأن ليس غرضهم من ذلك إلاّ قضاء الشهوة , والثاني : ففيه بيان حال هؤلاء القوم الذين يتبعون الرجال فيأتونهم , ويتركون إتيان النساء اللاتي أباحها الله لهم.

٢ - ( ذِكْرَى ) كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٦٥] يرى الزمخشري : إنَّ لفظة ( ذِكْرَى) تحتمل أنْ تكون منصوبة , ويجوز أنْ تكون مرفوعة فإن كانت منصوبة فهي بمعنى تذكرة , امّا لأنَّ ( أنذر وذكر ) متقاربان , فكأنَّه قيل : مذكرون تذكرة أو مذكرون ذكرى , فتنتصب على المصدر , وهذا الرأي ذكره الزجَّاج[٦٦]. وامَّا لأنَّها حال من الضمير في منذرين , أي ينذرونهم ذوي تذكرة , وهذا قول الكسائي[٦٧], وامَّا لأنَّها مفعول له على معنى : إنَّهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة . أو مرفوعة على انَّها خبر مبتدأ محذوف , بمعنى هذهِ ذكرى , أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى . أو جعلوا ذكرى

لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها. ووجه آخر , وهو أن تكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له . والمعنى : وما أهلكنا من قرية ظالمين إلاّ بعد ما الزمناهم الحجة بإرسال المنذرين اليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم , فلا يعصوا مثل عصيانهم[٦٨], مما تقدم نلحظ إن التعدد في الأوجه الأعرابية أدى إلى تعدد المعنى في الآية القرآنية .

٣ - ( يومًا ) كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [٦٩], يقول الزمخشري ( يومًا ) ((مفعول به , أي : فكيف تتقون أنفسكم يوم القيامة وهوله , إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحًا . ويجوز أن يكون ظرفًا, أي : فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا , ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم , أي : فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء ؛ لأنَّ تقوى الله خوف عقابه )) [٧٠]

٤ - ( أئفكًا ) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [٧١] إنَّ احتمال نصب لفظة (أئفكًا) في هذا النص لأكثر من توجيه ويؤدي ذلك الاحتمال إلى تعدد المعنى، فيقول الزمخشري في ذلك: (((أئفكًا) مفعول له تقديره : تريدون آلهة من دون الله أفكًا , وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية , وقدم المفعول له على المفعول به ؛ لأنَّهُ كان الأهم عنده أنْ يكافحهم بأنَّهم على أفك وباطل في شركهم , ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين))[٧٢] إنَّ التوجيهات الإعرابيَّة التي ذكرها الزمخشري لهذه اللفظة لها أثر واضح في تعدد المعنى, في الآية فإذا ما عددنا أنَّ اللفظة مفعول لأجله فإنَّ الغرض منها هو بيان سبب إرادة هؤلاء القوم للآلهة المتعددة فالتعليل الذي كشفت عنه هذه اللفظة هو انصرافهم من جهة الحق إلى جهة الباطل ومن الصدق إلى الكذب . وأمَّا إذا عددناها حالاً فهي لغرض بيان حال هؤلاء القوم الذين يعبدون الآلهة المتعددة الباطلة , ويبتعدون عن عبادة الإله الواحد الحق

٥ – (ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [٧٣]. ذكر الزمخشري وجهين من الإعراب لهذه اللفظة. الأول: مستثنى من غير جنسه , أي استثناء منقطع وهي النعمة , أي ما لأحد عنده نعمة إلاّ ابتغاء وجه ربه , كقولك : ما في الدار أحد إلاّ حماراً ... والثاني : مفعول له على المعنى ؛ لأن معنى الكلام : لا يؤتى ما له إلاّ ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة[٧٤].

مما تقدم نلحظ إنّ إعراب اللفظة على أنّها مستثنى منقطع من ( نعمة ) هو لغرض بيان , ان الابتغاء لا يكون من ضمنها أي ليس جزءاً منها ؛ لأنَّ المعنى : لكنَّه يؤتي ماله طلباً لوجه الله لا لأجل مكافأة نعمة , وأمَّا إعرابها على إنها مفعول لأجله ؛ فأن الغرض من ذلك هو بيان السبب أو التعليل من أنه لا يؤتي ماله لأجل شيء من الأشياء إلاّ لأجل طلب رضا الله تعالى

٦ – ( استكبارًا ) كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾[٧٥], ذكر الزمخشري مجموعة من الأوجه الأعرابية , لهذه اللفظة , وهذه الأوجه كلها مطلوبة ومرادة في معنى الآية القرآنية وفي ذلك يقول (((استكبارًا) بدل من نفور، أو مفعول له [٧٦] على معنى : فما زادهم إلاّ أنْ نفروا استكبارًا وعلواً ( في الأرض ) أو حال بمعنى : مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه واله وسلم والمؤمنين)) [٧٧] إنَّ الأوجه الإعرابية التي ذكرت لها أثر واضح في تعدد المعنى واتساعه –فإذا اعتبرنا لفظة (استكبارًا) الواردة في هذه الآية بدلا من نفور ، فتعني ما زادهم مجيء النذير إلا تباعدا عن الهدى وهروبا من الحق. وإذا اعتبرنا انَّها مفعول لأجله فإنَّها بيَّنت سبب زيادة نفورهم من النذير، أي أنَّهم نفروا عنه وتباعدوا للامتناع عن قبول الحق و الإذعان له بالطاعة، وإذا كانت – حالاً فإنَّها كشفت عن هيأتهم وسلوكهم بعد مجيء النذير، فهؤلاء في بداية الأمر حلفوا بأنَّهم إذا جاءهم النذير سيقبلون قوله

ويتبعونه، ولكن عندما جاءهم نفروا منه مستكبرين وماكرين برسول الله والمؤمنين غير مذعنين له بأقواله وأفعاله . فتعدد المعنى في الآية القرآنية كان بسبب تعدد الأوجه الإعرابية .

٧- ( مقامًا محمودًا ) كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [٧٨], يقول الزمخشري : (((مَقَامًا مَحْمُودًا) نصب على الظرف أي المعنى : عسى أنَّ يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقامًا محمودًا , أو ضُمّن يبعثك معنى يقيمك , ويجوز أن تكون حالاً بمعنى أنْ يبعثك ذا مقام محمود)) [٧٩]

٨ – ( وصيةً ) كما في قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [٨٠]

ذكر الزمخشري في نصب هذه اللفظة ثلاثة أوجه إعرابية[٨١] :

الأول: مصدر مؤكد, أي يوصيكم بذلك وصيةً كقوله تعالى: ﴿ فريضةً من الله ﴾[٨٢]

الثاني : أن تكون منصوبة –بغير مضار– أي لا يضار وصيةً من الله , وهو الثلث فما دونه بزيادة على الثلث .

الثالث: أن يكون التقدير: وصيةً من الله بالأولاد وألاّ يدعهم عالةً, بإسرافه في الوصية.

إنَّ الأوجه الاعرابية التي ذكرها الزمخشري من شأنها أن تؤدي إلى تعدد المعنى في الآية القرآنية , فعلى الوجه الأوَّل , تكون ( وصية ) لتأكيد الحكم من الله , وبهذا يكون ( غير مضار ) نهياً عن الاضرار العامة في قضية الميراث وأمَّا على الوجه الثاني فإن ( غير مضار ) مقصود بها النهي عن الاضرار في الوصية خاصة أي لا تضار وصية الله, وهنا لا تكون ( وصيةً ) مذكورة لغرض التأكيد, وإنما هي من تتمة كلام النهي عن الضرر. وأما الوجه الثالث فهو لا يبتعد عن معناه في الوجه الأول, ومما تقدم يمكن القول إنَّ تعدد المعنى في الآية

القرآنية سببه التوجيه الإعرابي للفظة على إنها مفعول مطلق أو على إنها مفعول به للمشتق العامل.

**المبحث الرابع (تعدد المحل الإعرابي):**

هو أن ترد لفظة أو جملة في كلام معين , تتحملان أكثر من محل إعرابي , بمعنى أن يكونا في محل رفع أو نصب أو جر أو جزم , والسبب النحوي الذي يؤدي إلى تعدد احتمال المحل الإعرابي هو أمَّا أن تأتي اللفظة أحيانا خالية من العلامة الإعرابية أو أن تأتي اللفظة أو الجملة ضمن موقع إعرابي معين يحتاجه المعنى والسياق؛ لأنَّ السياق له دور هام في احتمالية تعدد المحل الإعرابي . وقد وردت ظاهرة تعدد المحل الإعرابي في تفسير الكشَّاف في مواضع متعددة , وكانت في اكثر المواضع سببًا من أسباب تعدد المعنى , بوصفها ظاهره نحويَّة استعملها الزمخشري لغرض الاتساع في معنى الآية القرآنية . ومن تلك المواضع ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [٨٣] إذ يُسهم المصدر المؤول (أَنْ عَبَّدْتَ) باحتماله اكثر من محل إعرابي الأوَّل : محل الرفع بأنَّهُ عطف بيان – لتلك– ونظيره قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [٨٤] والمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنّها عليَّ , والثاني : محل النصب , وهذا ما نقله عن الزجاج , إذ يقول : وقال الزجَّاج[٨٥]: ويجوز أن يكون (أَنْ) في موضع نصب , المعنى : إنَّما صارت نعمة عليَّ لأن عبَّدت بني إسرائيل , أي : لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم[٨٦]. إن احتمال المصدر المؤول لأكثر من محل إعرابي يعدد المعنى في الآية القرآنية ويوسع أفق فهمها , فعلى الاحتمال الأوَّل , إذا كان في محل عطف بيان , فإنه يكون ( أنْ عبّدت ) تكملة لبيان ( تلك ) ؛لأنَّ الإشارة إلى خطة شنعاء وخصلة شوهاء , لا تكتنه حقيقتها إلاّ بتفسيرها , فجاء عطف البيان مفسراً ما أُبهم وفاتحاً ما أُغلق , وأمَّا على الاحتمال الثاني , فيكون المصدر المؤول مفعولاً لأجله , أي سببًا وتعليلًا للتعبيد , وقد وردت الاحتمالات التي ذكرها الزمخشري للمحل الإعرابي في بعض كتب إعراب القرآن[٨٧] . وفي تفسير قوله

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٨٨) ذكر الزمخشري للجملة الإسمية المؤكدة (أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) احتمالين لمحلها الإعرابي هما الرفع على البدلية والنصب بحذف لام التعليل منها, إذ يقول :((( أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) في محل الرفع بدل من كلمة ربك ، أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار , ومعناه : كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل , كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة , أوفي محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل , ومعناه : كما وجب إهلاك أولئك الأمم ، كذلك وجب إهلاك هؤلاء ؛ لأنَّ علّة واحدة تجمعهم إنّهم من أصحاب النّار)) (٨٩) إنَّ المحل الاعرابي لجملة (أنَّهم من أصحاب النار) حقق غرضين، الأول: تأكيد حكم الله تعالى في هؤلاء الكفرة المعاندين، والثاني: بيان العلة أو السبب في كونهم من أصحاب النار وهي علة واحدة يشتركون بها مع الأمم السابقة وهي أنَّهم كفَّار معاندون متهمون بقتل أنبيائهم . ومنه أيضا ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٩٠) . إذ تُسهم الجملة الفعلية (يُلْقُونَ) باحتمالها أكثر من محل إعرابي , وفي ذلك يقول الزمخشري : ((فإن قلت (يُلْقُونَ ) ما محله ؟ قلت : يجوز أن يكون في محل نصب على الحال أي : تنزل ملقين السمع , أوفي محل الجر صفة لكل أفَّاك ؛لأنَّهُ في معنى الجمع ))(٩١)سواء أُريد بالقاء السمع الإصغاء إلى الشياطين أو القاء المسموع إلى الناس(٩٢) .

وفي موضع آخر ذكر الزمخشري ( للكاف ) في قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ (٩٣) محلين من الإعراب , الأول : أن تكون الكاف بمعنى مثل ومحلها الرفع على إنها خبر لمبتدأ محذوف , تقديره هذه الحال كحال إخراجك , يعني إن حالهم في كراهة ما رأيت من تنقل الغُزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب , والثاني : أن يكون محلها النصب على إنّها صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله (الأنفال لله

والرسول ) أي استقرت لله والرسول , وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك ايَّاك من بيتك وهم كارهون[٩٤].

وأخيراً ما جاء في تفسيره لقوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[٩٥] فقوله (لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) يحتمل محلين من الإعراب , هما : النصب على الحال , والرفع على الوصف ، وقد بيَّن الزمخشري ذلك من خلال سؤال طرحهُ ثم أجاب عنه قائلاً ((فإن قلت : ما محل (لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) ؟ قلت: محله النصب على الحال من الإنسان كأنَّهُ قيل هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور , أو الرفع على الوصف لحين)) [٩٦] كقوله تعالى : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [٩٧]. إنَّ احتمال الجملة المنفية لأكثر من محل إعرابي يعدد المعنى ويوسعه , فعلى الاحتمال الأوَّل بأنَّها في محل نصب حال من الإنسان , بمعنى : هل أتى على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد غير المحدود والحال أنَّه لم يكن موجوداً بالفعل مذكوراً في عداد المذكورات , كالأرض والسماء والبر والبحر وغير ذلك , وأمَّا على الاحتمال الثاني على انَّها في محل صفة لحين بحذف العائد عليه , أي :فإن لم يكن فيه شيئاً مذكوراً فتكون علاقة الوصف بالموصوف علاقة زمنية ؛لأنَّ (الحين) في هذه الآية هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره . وقد وردت هذه الاحتمالات في بعض كتب إعراب القرآن [٩٨] .

**المبحث الخامس (أسباب نحوية أخرى):**

١- تعلق شبه الجملة (الجار والمجرور والظرف)

إنَّ شبه الجملة ( الجار والمجرور والظرف ) لا بدَّ لهما من عامل يتعلقان به ؛ لأنَّهما لا يستقلان بالمعنى بنفسيهما , فهما بمثابة التكملة الفرعية لمعنى الفعل أو شبهه في تلك الجملة التي يرد الجار والمجرور أو الظرف فيها[٩٩] إن الذي يحكم أو يُنظّم العلاقة بين شبه الجملة

والعامل هو المعنى في المقام الأوّل , وقد يصح أكثر من شيء ليكون متعلقاً ما دام المعنى يحتاج إلى ذلك ومن هنا يظهر تعدد المعنى الذي يتحكم به السياق الوارد فيه الكلام , وقد ظهر ذلك جليَّاً عند الزمخشري في مواضع عدة في تفسيره , إذ يرى احتمال وجود أكثر من متعلق لشبه الجملة بنوعيها الجار والمجرور والظرف , مما انتج معاني جديدة ومتعددة في تفسيره .

وسأعرض بعض الشواهد التي وقف عندها مبيَّناً تعدد المعنى فيها .

أ – الجار والمجرور : من ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (١٠٠). إذْ يلمس الزمخشري أثر تعلق الجار والمجرور في معنى الآية , فيقول :((فإن قلت : (فِي الْفُلْكِ) بم تعلق ؟ قلت : هو متعلق بمعه كأنَّهُ قيل : والذين استقروا معه في الفُلك أو صحبوه , ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء , أي نجيَّناهم في السفينة من الطوفان)) (١٠١) . إن الذي أدى إلى تعدد المعنى هو احتمال تعلق الجار والمجرور بأكثر من شيء في الآية القرآنية.

ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسيرِهِ لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (١٠٢). بيَّنَ الزمخشري في تفسيره لهذه الآية الاحتمالات التي تعلق بها شبه الجملة ( الجار والمجرور ) , (مِنَ الْمَسِّ ) فيقول: ((فإن قلت بم تعلق قوله (مِنَ الْمَسِّ) ؟ قلت : بـ (لَا يَقُومُونَ) , أي لا يقومون من المس الذي بهم إلاّ كما يقوم المصروع . ويجوز أن يتعلق بيقوم , أي كما يقوم المصروع من جنونهِ . والمعنى إنَّهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يُعرفون بها عند أهل الموقف . وقيل الذين يخرجون من

الأجداث يوفضون , إلاّ آكلة الربا فإنّهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ؛ لأنَّهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الايفاض)) [١٠٣].

فعلى الاحتمال الأوَّل يكون المس واقعًا حقيقة ؛ لأنَّهُ متعلق بالمشبه وهو ( الذين يأكلون ) فهم بسبب ما بهم من مس يشبهون من يتخبطه الشيطان . وعلى الاحتمال الثاني يكون (من المس ) من متعلقات. المشبه به , فهو ليس متحققاً في آكلي الربا وإنَّما هو حالة تشبهها حالتهم , فتعدد المعنى واتساعه في هذه الآية كان سببه احتمال تعلق الجار والمجرور بأكثر من شيء .

ومن الشواهد أيضا على تعلق الجار والمجرور بأكثر من شيء ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[١٠٤]إذ يحتمل قوله (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ) اكثر من جهة يمكن أن تتعلق به والتعدد في هذا الاحتمال ينتج عنه تعدداً في معنى الآية وفي ذلك يقول الزمخشري ( بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ) امَّا أن يتعلق بالمنذرين , فيكون المعنى : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود , وصالح , و شعيب , و إسماعيل , و محمد عليهم الصلاة والسلام , وامَّا أنْ يتعلق بنزل فيكون المعنى : نزله باللسان العربي لتنذر به ؛ لأنَّهُ لو نزله باللسان الأعجمي , لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه : إنَّ تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل على قلبك ؛لأنَّك تفهمه و يفهمهُ قومك . ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ؛لأنَّك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها )) [١٠٥]

ومما تقدم يمكن القول إنّ الجار والمجرور إذا تعلق بالإنذار , فشبه الجملة يكشف عن طبيعة هذا الإنذار وخصوصيته وإنه إنذار باللغة العربية ولسانها الواضح المبين , وأمَّا إذا تعلق

بالتنزيل فشُبه الجملة يكشف عن خاصية من خصائص الكتاب المنزّل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي نزله الروح الأمين على قلبه ؛لأنَّهُ يفهمه هو وقومه .

ب – الظرف : إنَّ احتمال تعلق الظرف بأكثر من شيء له أثر في تعدد المعنى , من ذلك ما جاء في تفسير الزمخشري لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ [١٠٦]. إذ يقول: (( (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) امَّا أنْ يتعلق بـ خسروا– ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا , وامَّا أن يتعلق– بـ قال – , أي : يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة)) [١٠٧] فعلى الاحتمال الأوّل يكون الخسران هو الحادث يوم القيامة وعلى الاحتمال الثاني يكون قول المؤمنين هو الحادث يوم القيامة , أي : إنَّ ما قالوه في الدنيا قد يقع يوم القيامة .

٢ – تعدد صاحب الحال :

يعد تعدد صاحب الحال أحد أسباب تعدد المعنى التي وردت في تفسير الكشاف , من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [١٠٨], فقد بيَّن الزمخشري في هذه الآية الحال وصاحبها والمعاني التي ينتجها من خلال سؤال طرحهُ ثم أجاب عنه , قائلاً (( فإن قلت (كَاظِمِينَ) بما انتصب ؟ قلت هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب, وإنَّ القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر, ...ويجوز أن يكون حالاً عن قوله (وأنذرهم) أي: وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[١٠٩])) [١١٠] ويبدو أن الرأي الأوّل هو الاقرب للمعنى ؛لأنَّ ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها.

ومن الشواهد أيضا على تعدد المعنى بسبب تعدد صاحب الحال ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [١١١] فلفظة (وَحِيدًا ) تعرب حالًا , وصاحب الحال لم يكن واحدًا وإنما متعدد , وهذا ما كشف عنه الزمخشري في تفسيره إذ يقول : ((وحيداً حال من الله عز وجل على معنيين :

أحدهما: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم .

والثاني: خلقته وحدي لم يشركني في خلقهِ أحد, أو حال من المخلوق على معنى: خلقته وهو وحيد لا مال له ولا ولد, كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [١١٢])) [١١٣]. نلحظ أنَّ تعدد صاحب الحال له أثر واضح في تعدد المعنى ، فإذا كان (وحيد) حالًا من فاعل ( خلقت ) فسياق الحال يكشف عن تهديد الخالق للمخلوق المستهزئ برسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – أي أن خلقه كان من قبل الله تعالى لا من غيره فلا يشاركه في خلقه أحد ،وأمَّا إذا كان (وحيد) حالًا من مفعول خلقت المضمر الذي يعود على اسم الموصول فهو لبيان انَّ هذا المخلوق حينما خُلِقَ كان ضعيفًا لا يمتلك مالا ولا بنينًا، وما يمتلكه الآن فهو من عند الله تعالى ،ومنه أيضاً ما جاء في تفسيره لقوله تعالى :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [١١٤], يرى الزمخشري أن لفظة (حَنِيفًا) في هذه الآية امَّا أن تكون حالًا للضمير المستتر في (وَاتَّبَعَ) وعلى هذا تكون (حَنِيفًا) من متممات إحسان الدين وشروطه , وامَّا أن تكون حالًا لإبراهيم (ع) ولا علاقه له بالمتبع ولا كيفية اتباعه , وعليه فإن (حَنِيفًا) اما أن تكون حالًا للمتبوع أو أن تكون حالًا للتابع[١١٥].

وأخيرًا نقف عند الآية القرآنية التي توسع الزمخشري في معناها بسبب تعدد صاحب الحال . قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[١١٦], ذكر الزمخشري للمصدر الذي وضع موضع الحال ثلاثة احتمالات لصاحبها ، الأوَّل : الذين كفروا

والثاني : من الفريقين , والثالث من المؤمنين ، وفي ذلك يقول (((زَحْفًا) حال من الذين كفروا والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وانتم قليل فلا تفرّوا فضلاً أن تدانوهم في العدد أو تُساووهم . أو حال من الفريقين أي : إذا لقيتموهم متزاحفين هم وانتم ، أو حال من المؤمنين كأنَّهم أُشعروا بما كان سيكون منهم يوم حُنين حين تولَّوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثني عشر الفاً وتقدمه نهي لهم عن الفرار يومئذٍ ))[١١٧] ويبدو ان لفظة ( زحفًا) في سياق هذه الآية و ما يكشف عنها من دلالات متمثلةً بالتحذير و النهي و الوعيد من الفرار او الادبار عند ملاقاة العدو , يمكن ان تكون حالاً من المؤمنين فيكون التقدير , و تزحفون اليهم زحفاً ويمكن ان تكون حالاً من الكفار , فيكون التقدير : ويزحفون اليكم زحفاً , بمعنى متدانين لقتالكم . فهذا التوجيه هو الاقرب في تفسير الآية القرآنية لان المعنيين مطلوبان في فهم النص القرآني .

٣ – تعدد المستثنى : يمثل أسلوب الإستثناء بأنواعه المختلفة أحد الأسباب النحويَّة في تعدد المعنى عند الزمخشري , فمرة تُحمل أداة الإستثناء على حقيقتها وإخراج ما بعدها من حكم ما قبلها , ومن ثم يكون الإستثناء متصلاً أو يكون الأمرُ على عكس ذلك فيكون الاستثناء منقطعاً غير مراد منه إخراج ما بعد أداته عما قبلها من الحكم , فضلاً عن دور السياق في تعدد الاحتمالات التي تؤدي إلى تعدد المعنى وهذا الأمر وقف الزمخشري عليه كثيراً في معالجته لأساليب الاستثناء الواردة في القرآن الكريم , من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى :﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١١٨], في هذه الآية يرد سؤال عن جهة الاستثناء الوارد فيها وهو انَّ الإستثناء في قوله (إِلَّا آلَ لُوطٍ) متصل أو منقطع ؟ .

إنّ هذا السؤال وما يفرضه من إشكال في فهم معنى الآية يفتح باب التأويل للاستثناء الوارد فيها والاستثناء بطبيعته قد يكون متصلًا وقد يكون منقطعًا ويمكن حمله في هذا النص على

النوعين وهذا التعدد في الاحتمال يؤدي إلى تعدد المعنى , وهو ما قرَّرهُ الزمخشري في إجابته عن السؤال الذي طرحه , إذ يقول: ((فإن قلت قوله تعالى (إِلَّا آَلَ لُوطٍ) استثناء متصل أو منقطع ؟ قلت: لا يخلو من أن يكون استثناء من ( قوم ), فيكون منقطعًا ؛ لأنَّ القوم موصوفون بالاجرام , فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون الاستثناء من الضمير في مجرمين فيكون متصلًا , كأنَّهُ قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلاّ آل لوط وحدهم , كما قال ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[119] ))[120] ثم يُضيف الزمخشري مستفهمًا عن اختلاف المعنى في الاستثناء ين فيقول ((فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم وذلك إنَّ آل لوط مخرجون من المنقطع من حكم الإرسال وعلى إنَّهم أُرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة , ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلًا . ومعنى ارسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمي ؛لأنَّهُ في معنى التعذيب و الإهلاك, كأنَّهُ قيل: إنَّا أهلكنا قومًا مجرمين ولكنَّ آل لوط أنجيناهم. وأمَّا في المتصل فهم داخلون في الإرسال وعلى أنَّ الملائكة أُرسلوا اليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء ويُنجّوا هؤلاء فلا يكون الإرسال مخلصا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل))[121] ومنه أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [122] يقول الزمخشري في تحليله للاستثناء الوارد في هذه الآية :((( إِلَّا قَلِيلًا) إنَّهُ منقطع معناه : ولكن قليلًا ممن انجينا من القرون نهو عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي . فإن قلت : هل لوقوع هذا الإستثناء متصلاً وجه يحمل عليه ؟ قلت : إن جعلته متصلًا على ما عليه ظاهر الكلام كان المعنى فاسدًا ؛لأنَّهُ يكون تخصيصًا لأولي البقية عن النهي عن الفساد إلاّ للقليل من الناجين منهم , كما تقول : هلا قرأ قومك القرآن إلاّ الصلحاء منهم , تريد استثناء الصلحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت : في

تحضيضهم على النهي عن الفساد معنى نفيه عنهم فكأنَّهُ قيل : ما كان من القرون أُولو بقية إلاّ قليلاً , كان استثناء متصلًا ومعنى صحيحًا , وكان انتصابه على اصل الإستثناء وإن كان الأفصح أن يرفع على البدل))[١٢٣]. والرفع على البدل رأي جوزةُ الفرَّاء,[١٢٤] وقد ورد شيء من هذا التعدد في بعض كتب إعراب القرآن ومعانيه[١٢٥].

٤- تعدد المستثنى منه : من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾[١٢٦] في هذا النص تعدد المعنى بسبب تعدد المستثنى منه وقد بيَّن الزمخشري ذلك بقوله (((إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) استثناء منقطع من المحضرين : معناه ولكنَّ المخلصين ناجون ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون , أي يصفهُ هؤلاء بذلك , ولكنْ المخلصون براء من أنْ يصفوهُ به ))[١٢٧]. وسواء أكان الإستثناء من المحضرين أو من الواو في يصفون فهو يعد مدحا للمخلصين الذين أخلصوا الطاعة لله تعالى وطهروا قلوبهم من أرجاس الشرك وأنجاس الكفر والرذائل، وتعريضا بالمشركين ومزيدا ليغيظهم بسبب سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم[١٢٨] .

**الخاتمة:**

بعد أن شارف البحث على الانتهاء لا بدَّ من خاتمة تبيِّن أهم النتائج التي توصل اليها البحث :

- احتمالات تعدد المعنى. وردت عند الزمخشري في تفسير الكشاف , وكانت من آرائه التي تفرد بها , إلاّ في بعض المواضع القليلة جداً فقد كان يَنسب المعنى إلى بعض المفسرين السابقين فمرة يذكرهم بأسمائهم فيقول مثلا: وقال الزجَّاج ... , وأحياناً لم يذكرهم صراحة .

- المرونة وسعة افقه أهم ما يميز الزمخشري في تعامله مع الاحتمالات التي يذكرها .
- بيَّنت الدراسة إنَّ الزمخشري في اكثر المواضع التي ذكر فيها احتمالات تعدد المعنى لا يرجح احتمال على آخر إلاّ في مواضع قليلة , والسبب في ذلك ؛لأن المعاني التي ذكرها مطلوبة ومرادة في تفسير الآية القرآنية .
- الطريقة المتبعة عند الزمخشري عندما يذكر احتمالات تعدد المعنى , امَّا أن يطرح سؤالاً ثم يجيب عنه أو يذكر اللفظة أو الجملة مباشرة ثم يبيّن احتمالات تعدد المعنى الناتجة عنها .
- تعامل الزمخشري مع مَرجَع الضمير تعاملا دقيقاً , فقد بيَّنت الدراسة إنَّهُ كان متتبعاً لكل احتمالات المعنى الناتجة عن عودة الضمير .
- أكثر الألفاظ التي, وجهها الزمخشري توجيهًا إعرابيا كانت منصوبة وكان يذكر الأوجه الإعرابية لها ثم يذكر المعنى المناسب لكل وجه , وأحياناً يذكر الأوجه الإعرابية لها دون أن يشير إلى المعنى او الوجه الاعرابي الاقرب في تفسير الآية القرآنية .
- يرى الزمخشري انَّ الإستثناء الوارد في الآية القرآنية ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يحتمل أن يكون متصلًا ومنقطعًا . فإذا كان الإستثناء من لفظة (قوم) فإنَّهُ منقطعٌ ؛لأنَّ القومَ وصفوا بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان , وإن كان الاستثناء من الضمير في (مجرمين) فإنَّه متصل كأنَّه قيل : إلى قومٍ قد أجرموا كلهم إلاّ آل لوط وحدهم .

**الهوامش:**

(١) ينظر: جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني:٣/٥٨٢
(٢) ينظر: كتاب معاني الحروف،للرماني:٦٩
(٣) ينظر: أسرار النحو، شمس الدين احمد بن سليمان:٢٦٢
(٤) حروف المعاني، لأبي اسحاق الزجاجي:٥٠
(٥) المصدر نفسه:٦٥
(٦) الأصول في النحو، لابن السرَّاج:١/٤١٥
(٧) من سورة التحريم:١٢
(٨) ينظر: تفسير الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:٤/٦٢٤
(٩) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،للآلوسي:٢٨/٤٩٦
(١٠) ينظر: تفسير الكشَّاف:٤/٦٢٤
(١١) من سورة الفرقان:٧٤
(١٢) من سورة الفرقان:٧٤
(١٣) تفسير الكشَّاف:٣/٣٣٤-٣٣٥
(١٤) ينظر: الميزان في تفسير القرآن،للطباطبائي:١٥/١٩٦
(١٥) من سورة هود:٤٨
(١٦) ينظر:تفسير الكشَّاف:٢/٤٤٠
(١٧) من سورة الأحقاف:٣٥
(١٨) ينظر:تفسير الكشَّاف:٤/٣٤٠
(١٩) ينظر: روح المعاني:٢٦/٢٦٦
(٢٠) ينظر: مجمع البيان لعلوم القرآن،للطبرسي:٩/١٦٨
(٢١) من سورة الروم:٢٨
(٢٢) تفسيرالكشَّاف:٣/٥٣٦
(٢٣) المصدرنفسه.

(٢٤) ينظر : العقل العربي في القرآن،د٠سعد كموني:١١٩

(٢٥) من سورة البقرة:١٠٥

(٢٦) من سورة البينة:١

(٢٧) ينظر :تفسير الكشَّاف:١/٢٠٧-٢٠٨

(٢٨) ينظر : روح المعاني:١/٤٦٧

(٢٩) ينظر : كتاب معاني الحروف:٦٨

(٣٠) من سورة النمل:٨٤

(٣١)تفسير الكشَّاف:٣/٤٣٣

(٣٢) من سورة مريم:٦٨

(٣٣)ينظر :تفسير الكشَّاف:٣/٣٦

(٣٤)ينظر:المصدر نفسه٠

(٣٥)من سورة المائدة:٥٩

(٣٦)تفسير الكشَّاف:١/٧٤٢

(٣٧)ينظر : مجمع البيان لعلوم القرآن:٣/٤٢٧

(٣٨)من سورة القصص:٥

(٣٩)ينظر : تفسيرالكشاف:٣/٤٤٠

(٤٠)ينظر : النحو الوافي، للأستاذ عباس حسن:١/٢٣٧- ٢٣٨

(٤١)ينظر : جامع الدروس العربية:١/٩٤ ،والنحوالوافي:١/٢٣٧

(٤٢)من سورة آل عمران:٧٥-٧٦

(٤٣)تفسير الكشاف:١/٤٣١-٤٣٢

(٤٤)من سورة الجن:١-٣

(٤٥)تفسير الكشَّاف:٤/٦٧٧

(٤٦)من سورة الزمر:٧٥

(٤٧)تفسيرالكشَّاف:٤/١٥٧-١٥٨

(٤٨)من سورة الاسراء:٣٣

(٤٩)تفسير الكشَّاف:٧٢٤-٧٢٥

(٥٠)من سورة الصافات:١٥٨

(٥١)تفسير الكشَّاف:٤/٦٨

(٥٢)معاني القرآن وإعرابه:٤/٢٣٧

(٥٣)من سورة الشمس:١١-١٥

(٥٤)تفسير الكشَّاف:٤/٨٣٠

(٥٥)ينظر: معاني القرآن وإعرابه:٥/٢٥٥

(٥٦)تفسير الكشَّاف:٤/٨٣٠

(٥٧)من سورة النحل:٤١

(٥٨)تفسير الكشَّاف:٢/٦٦٢

(٥٩)ينظر: روح المعاني:١٤/٥١٦

(٦٠)تفسير الكشَّاف:٢/٦٦٢

(٦١)من سورة المائدة:٤

(٦٢)تفسير الكشَّاف:١/٦٩١-٦٩٢

(٦٣)من سورة الأعراف:٨١

(٦٤)تفسير الكشَّاف:٢/١٣٨-١٣٩

(٦٥)من سورة الشعراء:٢٠٨-٢٠٩

(٦٦)ينظر: معاني القرآن وإعرابه:٤/٧٩

(٦٧)ينظر: إعراب القرآن،للنحاس:٣/٣٨٠

(٦٨)ينظر: تفسير الكشَّاف:٣/٣٨٠

(٦٩)من سورة المزمل:١٧

(٧٠)تفسير الكشَّاف:٤/٦٩٨-٦٩٩

(٧١)من سورة الصافات:٨٣-٨٦

(٧٢)تفسير الكشَّاف:٥١/٤

(٧٣)من سورة الليل:٢٠

(٧٤)ينظر: تفسير الكشَّاف:٨٣٤/٤-٨٣٥

(٧٥)من سورة فاطر:٤٢-٤٣

(٧٦)المفعول له ،رأي ذكره الزجاج، ينظر: معاني القرآن وإعرابه:٢٠٧/٤

(٧٧)تفسير الكشَّاف:٦٩٥/٣

(٧٨)من سورة الليل:٧٩

(٧٩)تفسير الكشَّاف:٧٤٨/٢

(٨٠)من سورة النساء:١٢

(٨١)ينظر: تفسير الكشَّاف:٥٥٦/١

(٨٢)من سورة النساء:١١

(٨٣)من سورة الشعراء:٢٢

(٨٤)من سورة الحجر:٦٦

(٨٥)ينظر: معاني القرآن وإعرابه:٦٧/٤

(٨٦)ينظر:تفسير الكشَّاف:٣٤٦/٣

(٨٧)ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري:٥٥٢/٢

(٨٨)من سورة غافر:٦

(٨٩)تفسير الكشَّاف:١٦٢/٤

(٩٠)من سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٣

(٩١)تفسير الكشَّاف:٣٨٥/٣

(٩٢)ينظر: روح المعاني:١٨٦/١٩

(٩٣)من سورة الأنفال:٥

(٩٤)ينظر: تفسير الكشَّاف:٢١٧/٢

(٩٥)من سورة الإنسان:١

(٩٦)تفسير الكشّاف:٧٢٦/٤

(٩٧)من سورة لقمان:٣٣

(٩٨)ينظر: التبيان في إعراب القرآن،للعكبري:٢٣٩/٢

(٩٩)ينظر النحو الوافي:٤٣٦/٢

(١٠٠)من سورة الأعراف:٦٤

(١٠١)تفسير الكشّاف:١٢٨/٢

(١٠٢)من سورة البقرة:٢٧٥

(١٠٣)تفسير الكشّاف:٣٧١/١-٣٧٢

(١٠٤)من سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥

(١٠٥)تفسير الكشّاف:٣٧٦/٣-٣٧٧

(١٠٦)من سورة الشورى:٤٥

(١٠٧)تفسير الكشّاف:٢٤٩/٤

(١٠٨)من سورة غافر:١٨

(١٠٩)من سورة الزمر:٧٣

(١١٠)تفسير الكشّاف:١٦٩/٤

(١١١)من سورة المدثر:١١

(١١٢)من سورة الأنعام:٩٤

(١١٣)تفسير الكشّاف:٧٠٥/٤

(١١٤)من سورة النساء:١٢٥

(١١٥)ينظر:تفسير الكشّاف:٦٤٩/١

(١١٦)من سورة الأنفال:١٥

(١١٧)تفسير الكشّاف:٢٢٦/٢

(١١٨)من سورة الحجر:٥٧-٥٩

(١١٩)من سورة الذاريات:٣٦

(١٢٠)تفسير الكشّاف:٦٣٥/٢

(١٢١)تفسير الكشّاف:٦٣٦/٢

(١٢٢)من سورة هود:١١٦

(١٢٣)تفسير الكشّاف:٤٧٩/٢

(١٢٤)ينظر : معاني القرآن:٣٠/٢

(١٢٥)ينظر : معاني القرآن وإعرابه،للزجاج:٦٧/٣،والبيان في غريب إعراب القرآن:٤١٢/٢

(١٢٦) من سورة الصافات:١٥٨-١٦٠

(١٢٧) تفسير الكشّاف:٦٨/٤

(١٢٨) ينظر : روح المعاني:٢٠٢/٢٣

## المصادر والمراجع:


- القرآن الكريم.

١-أسرار النحو،لشمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا، تحقيق الدكتور أحمد حسن حامد- منشورات دار الفكر-عمان-(د-ت)

٢-الأصول في النحو، أبو بكر بن سهل بن السرَّاج(ت٣١٦هـ)تحقيق:د٠عبدالحسين الفتلي-الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة-بيروت/١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

٣-إعراب القرآن الكريم وبيانه، الأستاذ محيي الدين الدرويش-المجلد الخامس-منشورات كمال الملك-مطبعة- سلمان زاده،ط١-مركزالتوزيع-العراق-النجف-(د-ت)

٤- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ) تحقيق:د٠زهيرغازي زاهد-ط٢-عالم الكتب- بيروت/١٤٠٥هـ -١٩٨٥م

٥-الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب، لابن السيد البطليوسي(ت٥٢١هـ)تحقيق مصطفى السقا- المكتبة العربية المجلس الاعلى للثقافة - اشتراك الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة/١٩٨١م

٦- البيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري(٥٧٧هـ)تحقيق ودراسة الدكتور جودة مبروك محمد، الناشر مكتبة الآداب،ط٢-القاهرة/١٤٣١هـ -٢٠١٠م

٧-التبيان في إعراب القرآن، تأليف أبي البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري(٦١٦هـ) الجزء الثاني / الطبعة الأولى-منشورات ذوي القربى-قم(د-ت)

٨- تفسير الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ)المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر (د-ت)
٩-جامع الدروس العربية، للشيخ مصطفى الغلاييني، راجع هذه الطبعة ونقحها سالم شمس الدين- دار الكوخ للطباعة والنشر-الطبعة الأولى/١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م
١٠-حروف المعاني، أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي( ت٣٤٠هـ)تحقيق: د٠علي توفيق الحمد مؤسسة الرسالة-ط١-بيروت/١٩٨٤م
١١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي(١٢٧٠هـ) الأجزاء:٢٩،٢٨،١٩،١٢،داراِحياءالتراث العربي للطباعة والنشر التوزيع ط١، بيروت- لبنان/١٤٢٠هـ -١٩٩٩م
١٢- العقل العربي في القرآن، د٠سعدكموني – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى- بيروت – لبنان/٢٠٠٥م
١٣- كتاب معاني الحروف، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي(ت٣٨٤هـ)تحقيق د٠عبدالفتاح اسماعيل شلبي ،دار ومكتبة الهلال-بيروت/١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م
١٤- مجمع البيان لعلوم القرآن، للإمام السعيد أبو الفضل بن الحسن الطبرسي(ت٥٤٨هـ)مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع-الطبعة الأولى-طهران/١٣٩٠هـ -١٩٧٠م
١٥- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء(ت٢٠٧هـ)تحقيق د٠محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي – عالم الكتب،ط٢،بيروت – لبنان/١٩٨١م
١٦- معاني القرآن وإعرابه، أبي اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج(٣١١هـ)شرح وتحقيق د٠عبدالجليل عبده شلبي، الأجزاء ٣-٤،طبع ونشر وتوزيع دار الحديث، سنة الطبع/١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م
١٧- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم،د٠محمد الأمين الخضري-مكتبة وهبة-ط١،القاهرة/١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م
١٨- الميزان في تفسير القرآن، تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تحقيق الشيخ إياد باقر سلمان – دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان/١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م
١٩- النحو الوافي ،للأستاذ عباس حسن،ج١-٢،الناشر آوند دانش للطباعة والنشر،ط١/١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م